سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾

أُمِّ الكِتَابِ : اللوح المحفوظ أو العلم الأزلي .

المراد بـ ﴿ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ هو اللوح المحفوظ عند الله . وقد أثبت الله في اللوح المحفوظ ذلك الدين الأصيل الذي يطلبه من البشر ، وهذا الدين الأصيل هو الذي نزل على الأنبياء والمرسلين بلغات شتى على اختلاف العصور ، وقد نزل على نبي آخر الزمان – ﷺ – باللغة العربية ، وهذا القرآن العربي هو وحده ممثل للدين الإلهي الحق في عالمنا الراهن ، وإنما المسئولية الآن ملقاة على عواتق حاملي القرآن الكريم أن يوصلوا رسالته إلى شعوب الأرض كافةً بنقله إلى سائر لغات العالم ، حتى يتمكن الآخرون بدورهم من أن يفهموه تماماً كما فهمه العرب . وكون القرآن متصفاً بالعلو ومليئاً بالحكمة دليل على كونه كتاباً إلهياً ، فلغة القرآن الكريم ومضامينه على مستوى العظمة الإلهية تماماً ، وهذا في حد ذاته برهان صارخ بأنه كتاب الله ، ولو أن القرآن كان كلاماً إنسانياً ، لم يكن ليبلغ ما هو عليه الآن من هذا المستوى غير العادي من العظمة والروعة والجلال!!

﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ: أفنترك تذكيركم وإلزامكم الحجة بإنزال القرآن .

صَفْحاً : إعراضاً أو معرضين عنكم .

أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ؟: لكونكم مفرطين في الجهالة والضلالة لا نتركه .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا : كثيراً أرسلنا.

فِي الأَوَّلِينَ : في الأمم السابقة .

بَطْشاً : قوة .

هناك عدد لا يحصى من الناس في العالم اليوم يردد أسماء الأنبياء السابقين بمنتهى التوقير والاحترام ، وهذا الوضع يبدو مثيراً للدهشة والاستغراب ، إذْ قارنّاه بما قوبل به أولئك الأنبياء - بما فيهم رسول الإسلام - من التحقير والاستهزاء من قبل معاصريهم !.

وليس مرجع ذلك إلى كون الناس في سالف الدهور همجيّين ، وكونهم اليوم في أعلى مراتب التحضر والمدنية ، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى فارق الزمن ، فاليوم ، بعد أن بَعُد العهد ، ومضت قرون متطاولة ، قد صار اسم كل نبي من الأنبياء مقروناً بالأمجاد التاريخية ، مما يجعل عبدة الظواهر اليوم سرعان ما يتعرفون عليه بدون عوائق ، أما بالنسبة إلى معاصريه، فقد كان النبي يبدو في صورة إنسانٍ عاديٍ ليس غير ، وللتعرف عليه حينذاك - بوصفه نبياً- كان لابد من توفر بصرٍ ثاقب نفاذ إلى الحقيقة ، وليس من شكٍ في أن هذا البصر النفاذ - كان ولا يزال - أقل شيءٍ وُجد في هذا العالم!

ومهما كان سلوك المخاطبين لدعوة الحق خاطئاً أو حتى سيئاً ، فإن الداعي لا يبرح يواصل عمله الدعوي بدأبٍ ونشاطٍ ، إلى أن يحين الوقت الذي يقضي الله فيه من عنده بما يحسم الصراع الدائر بين دعاة الحق ومعارضيه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

مَثَلُ الأَوَّلِينَ : صفتهم أو قصتهم العجيبة .

الأَرْضَ مَهْداً : فراشاً ممهداً للاستقرار عليها .

سُبُلاً : طرقا تسلكونها ، أو معايش .

مَاءً بِقَدَرٍ : بتقدير محكم أو بمقدار الحاجة .

فَأَنشَرْنَا بِهِ : فأحيينا بالماء .

خَلَقَ الأَزْوَاجَ : أوجد أصناف المخلوقات وأنواعها .

وَالأَنْعَامِ : ومن الأنعام وهو الإبل .

لِتَسْتَوُوا : لتستقروا ، وتستعلوا .

سَخَّرَ : ذلل .

إن أكثر الناس كانوا - ولا يزالون - في كل زمانٍ يؤمنون بأن خالق هذا الكون

ومالكه هو الله ، وهو الذي منحنا كل ما نحتاج إليه في الحياة الدنيا .

إن إيجاد الكون وتوفير الأسباب الضرورية للحياة فوق الأرض ، لعمل عظيم هائل لدرجة أنه لا يمكن لشخصٍ ما إن يعزوه إلى أحدٍ غير الله الواحد الأحد .

وهذا الإقرار يقضي بأن يكون الله هو موضع اهتمام الإنسان الأكبر ، وأن تصطبغ حياته بالصبغة الإلهية ، ولكن الإنسان يتخذ من أشياء أخرى مقصوده ، ويجعل من غير الله مركز اهتمامه وتوجهاته .

لقد كشف الله الحقيقة بواسطة أنبيائه ، ثم إنه تعالى أنشأ هذا الكون بحيث صار بكل موجوداته وظواهره تمثيلاً عملياً حياً للحقائق المعنوية .

ومن هذه الحقائق مثلاً أن الإنسان سيبعث بعد موته من جديدٍ ، ويتم تمثيل هذه الحقيقة مرةً بعد أخرى على مستوى النبات ، حيث يشاهد الإنسان كل عامٍ أن الأرض قد يبست ، ثم ينزل عليها المطر ، فإذا بها تعود مرةً أخرى ناضرة خضراء .

وفي هذا إشارة بليغة إلى أن الإنسان بدوره سوف يُبعث بعد موته من جديدٍ كذلك .

والميزة الثانية للعالم الراهن تكمن في كونه ملائماً للإنسان على نحوٍ مدهشٍ ، فقد صُنع كل شيءٍ هنا بحيث يتمكن الإنسان من استخدامه لتحقيق شتى أغراضه كما يشاء، ممّا يقتضي أن تستيقظ في نفس الإنسان عواطف الشكر والعرفان .

فينبغي له إذا استعمل شيئاً من مصنوعات الله أن يخضع قلبه لله ، وتفيض من لسانه كلمات الاعتراف والحمد والابتهال.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

مُقْرِنِينَ : مطيقين وغالبين أو ضابطين .

وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ : أخلصكم وآثركم بهم .

مَثَلاً : شبها ومماثلاً .

وَهُوَ كَظِيمٌ : مملوء في قلبه غيظا وغماً .

يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ : يربى في الزينة والنعمة (البنات) .

فِي الخِصَامِ : المخاصمة والجدال.

من صور الإشراك بالله أن يتخذ المرء من أحدٍ شريكاً في الذات الإلهية ، كالاعتقاد أن الملائكة بنات الله ، أو القول بأن المسيح ابن الله ، أو كنظرية وحدة الوجود التي تفسر الكون باعتبار كل موجوداته أجزاء من ذات الله .

إن كل العقائد من هذا النوع باطلة محضة لا تستند إلى أي دليل حقيقي مطلقاً .

والآية رقم (١٨) قد تضمنت وصفين جامعين يتميز بهما صنف الإناث عن صنف الرجال : أما أحدهما : فهو أن المرأة ميالة بطبعها إلى الزينة والتحلي . وأما الآخر: فيكمن في كونها لا تقدر عند الجدال والخصومة على التعبير عن موقفها بأسلوبٍ قويٍ مؤثرٍ . وهذا النقص الطبيعي في صنف الإناث حقيقة تفرض نفسها . ونظراً إلى هذه الحقيقة ذاتها أخذ الإسلام بمبدأ تقسيم الواجبات الاجتماعية بين الجنسين : إذْ ألقي على عاتق الرجل تبعة العمل خارج البيت ، بينما جعل المرأة مسئولةً عن تدبير شئون البيت الداخلية!.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يَخْرُصُونَ : يكذبون فيما قالوه .

عَلَى أُمَّةٍ : على دين وطريقة تؤم وتقصد .

قَالَ مُتْرَفُوهَا : متنعموها المنغمسون في شهواتهم .

إن المرء لا يعدم الفرص لأي عملٍ يريد ممارسته في العالم الراهن ؛ مما يوقع كثيراً من الناس في سوء فهمٍ ، مؤداه أن كل ما يفعلونه هو الصواب عينه ، وأنهم لو كانوا على

خطأ، لم يحالفهم النجاح في ترويج طريقتهم، ومثل هذه الأقاويل يرددها غالباً أولئك الذين ينتمون إلى طبقة "المترفين".

غير أن هذا سوء فهمٍ خطير جداً، فإن رواج طريقةٍ ما في رحاب هذا العالم إنما يرجع إلى حرية الامتحان المتاحة هنا للجميع، للصالحين والطالحين على سواء، وحيث إن فترة الامتحان ستكون قد انتهت في عالم الآخرة، فلن يجد أحد هناك هذه الفرصة بطبيعة الحال، وأشد مواجهةٍ أو مقاومةٍ ظل يتعرض لها دين الأنبياء والرسل على اختلاف العصور هي التي كانت بينه وبين دين الآباء الموروث، إذْ إن "الآباء" يكونون قد تحولوا عند الأمم إلى "أكابر"، ويبدو لهم نبي العصر - بالقياس إليهم - من أصاغر الناس؛ ولهذا السبب يعود مستحيلاً على القوم أن يختاروا دين أحد الصغار متخلين عن دين الكبار، غير أن تكذيب أولئك "الصغار" هو الذي جرّ على الشعوب الهالكة ذلك العذاب الذي كان في حسبانها أنها لن تتعرض له إلا بتكذيب "الكبار" !!

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

إِنَّنِي بَرَاءٌ: بريء.

فَطَرَنِي: خلقني وأبدعني.

كَلِمَةً بَاقِيَةً: كلمة التوحيد، أو البراءة.

فِي عَقِبِهِ: ذريته إلى يوم القيامة.

إن كلمة إبراهيم المذكورة هنا ، والتي تضمنت إعلان التوحيد الخالص والتبرؤ المطلق من عبادة غير الله ، كانت قد صدرت من لسانه عليه السلام في المرحلة الأخيرة من حياته الدعوية ، ولم تكن هذه الكلمة مجموعة من بعض الحروف والألفاظ ، وإنما كانت هي خلاصة تاريخ حافل عظيم ، فحين بلغ سيدنا إبراهيم سن التمييز اكتشف أن إله الإنسان إله واحد ليس غير ، وأن كل الآلهة سواه باطلة محضة لا أصل لها ولا حقيقة. ولقد بنى عليه السلام حياته على أساسٍ من هذه العقيدة ، كما نهض يدعو إليها أفراد أسرته وقومه، وما برح عليه السلام قائماً بذلك ، باذلاً جهد طاقته بدأبٍ ونشاطٍ في سبيل دعوته ، حتى غدا كونه موحّداً هو الطابع المميز له وهوّيته التي راح يعرف بها في بيئته، وبعد ممارسة حياةٍ طويلةٍ كهذه ، عندما قال عليه السلام الكلمة المذكورة ، وهو يغادر وطنه مهاجراً ، فكان من الطبيعي أن تعود كلمته تلك "كلمةً باقيةً " ، فإنها كانت مرتبطةً بحادثةٍ تتجدد ذكراها في النفوس كلما ذُكر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - .

وقد كان المفروض أن تكون سنة إبراهيم العظيمة هذه معلماً أو نبراساً مضيئاً يهتدي به ذريته من بعده إلى طريق الحق ، غير أن العكوف على متاع الدنيا ، جعل من جاء في عقبه غافلين عن هذا ، لدرجة أنه لما أتاهم عبد من عباد الله في العهد الأخير يذكرهم بما نسوه من درس ماضيهم ، لم يلبثوا أن تلقوه بالإنكار والتكذيب !

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ

وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ : من إحدى القريتين مكة والطائف .

سُخْرِياً : مسخراً في العمل ، مستخدماً فيه .

أُمَّةً وَاحِدَةً : مطبقة على الكفر حبا للدنيا .

وَمَعَارِجَ : مصاعد ومراقي ودرجا من فضة

يَظْهَرُونَ : يصعدون ويرتقون .

وَزُخْرُفاً : ذهبا ، أو زينة مزوقة .

لَّا مَتَاعُ : إلا متاع .

لما ظهر رسول الإسلام في مكة ، كان يبدو لمن حوله أنه إنسان عادي ، فتساءل الناس قائلين : إذا كان الله يريد أن يبعث مندوباً له لأجل هدايتنا ، فهلاّ وقع اختياره لهذا الغرض على عظيمٍ من عظماء هاتين المدينتين المركزيتين (مكة والطائف) من جزيرة العرب ؟! غير أن هذا الاعتراض إنما كان نابعاً من قصور نظرهم ، فالإنسان لا يكاد يرى إلا الحاضر الماثل أمامه وحده ، بينما كان التعرف على عظمة رسول الإسلام يتطلب عيناً تبصر المستقبل ، وبما أن القوم لم يكونوا يمتلكون هذا البصر البعيد المدى ، عجزوا بالتالي عن تفهم عظمة رسول الإسلام ﷺ .

وكان السبب في استصغار الناس لرسول الإسلام يرجع إلى أن حياته - عليه الصلاة والسلام - كانت خاليةً من بريق الأشياء المادية وبهرجها ، ولكن الأشياء المادية لا أهمية لها عند الله عز وجل . والواقع أن هذه الأشياء لمن زهادة القيمة والهوان على الله بحيث لو شاء تعالى لأعطى الناس كلهم أكواماً هائلةً من الذهب والفضة ، إلا أنه تعالى لم يفعل ذلك ، لأن الناس كانوا سيعودون بعدئذٍ مشغولين بهذه الأشياء وحدها ،

ولا يستطيعون الانطلاق من أسرها حتى يدركوا الحقيقة في صورتها المجردة الخالصة !

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وَمَن يَعْشُ : من يتعام ويعرض ويتغافل .

نُقَيِّضْ لَهُ : نسبب ، أو نتح له .

لَهُ قَرِينٌ : مصاحب له لا يفارقه .

الإعراض عن النصيحة (الذِّكر) هو أن تتجلى أمامه الحقيقة الإلهية مصحوبةً بأدلةٍ لا يستطيع دحضها أو إنكارها ، إلا أنه يقابلها بالإهمال واللامبالاة حفاظاً على مصالحه الذاتية! ومثل هذا الشخص ربما يلجأ إلى إثارة صنوف الأباطيل ضدها تبريراً لموقفه ، وهذا هو الوقت الذي يجد فيه الشيطان فرصته لكي يتسلّط عليه ، ويسوق عقله في اتجاهٍ خاطئٍ ، فلا يزال الشيطان يلهيه بالتأويلات المفترضة في محاولة إقناعه بأنه على الحق والصواب ، وإنما ينكشف هذا الخداع حين يُفجأ المرء بالموت ، فيُقام بين يدي ربه للحساب الأخير !

وفي الحياة الدنيا طالما يتخذ المرء قرينه وصديقه ممن يمالئه على كذبه وانحرافه ، ولكنه سوف يلعن كل القرناء والأصدقاء من هذا النوع في الآخرة ، ويود لو كانت بينه وبينهم مسافة شاسعة لدرجة أنه لم ير وجه أحدٍ منهم ولا سمع صوته أبداً !!

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا

نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لو أن ذا بصرٍ أغمض عينيه ، لما أمكنه أن يرى شيئاً ، ولو أن ذا سَمْعٍ سدّ أذنيه ، لما استطاع أن يسمع شيئاً...، وهكذا مَنْ لا يستعمل عقله ، ويأخذ في السير على هواه معطلاً عقله ، فإن إفهام شخصٍ كهذا وتذكيره لن يجدي فتيلاً ، حيث إن عملية الفهم والتذكر إنما تتم بواسطة العقل ، وهذا قد عطّل عقله وغطّاه تحت ستارٍ - من شهواته ورغباته - كثيفٍ، على أن المدعو ، مهما يكن سلوكه وموقفه ، فإن الداعي مطالب على كل حالٍ ، بمواصلة نشاطه الدعوي بجدّ ، وإخلاص إلى أن يبلغ حد الإعذار ، وإلزام الحجة .

ومع أن الداعي إلى الحق يكون إنساناً ، إلا أن أمر الحق هو أمر الله ، وقد يحسب المرء، وهو ينكر داعية الحق ، أنه قد نجا من ضربة الحق ، بينما هو لا يلبث أن يقع في الوقت نفسه تحت ضربة الله وسخطه .. وسيرتجف فؤاد المرء بشدةٍ ويشعر بقشعريرةٍ تدب في أوصاله ، وهو يقابل داعي الحق بالإعراض والإهمال ، فيما إذا هو أدرك هذا السر حق الإدراك ، لأنه سيعلم عندئذٍ أن إهمال داعية الحق إهمال للحق نفسه ، وأن إهمال الحق هو إهمال لله - عز وجل!!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ

ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

عرض موسى دعوة التوحيد على فرعون، مبرهناً على صدقه بمعجزة العصا واليد، وحين رأى فرعون وملؤه ذلك راحوا يضحكون منه ساخرين، وكان السبب في ذلك أنهم لم يروا موسى عليه السلام في دعوته، وإنما رأوه في شخصه، حيث بدا لهم ظاهراً أن شخصية موسى أضأل شأناً من شخصياتهم هم، كما ظنوا بالنسبة إلى معجزته أنها سحرٍ، وأن بإمكان سحرة الدولة أن يأتوا بسحرٍ مثله!! وهذا ما حدث - ولا يزال - مع دعوة الحق دائماً، فالناس يرفضون الدعوة بالنظر إلى شخصية الداعي، ويُعرضون عن الآيات بقياسها على الوقائع العادية المألوفة.

ولما أبى فرعون وأصحابه التسليم بما جاء به موسى، أصابهم الله بشتى ألوان العقوبات تحذيراً لهم وتنبيهاً، حتى يرجعوا إلى الله تعالى، وقد جاء ذكر هذه العقوبات التحذيرية بالتفصيل في سورة الأعراف (١٣٣-١٣٥)، وكانت كل عقوبةٍ تنزل بدعاء موسى ثم تنتهي بدعائه كذلك، وقد كان ذلك سبباً إضافياً من شأنه أن يبعثهم على الرجوع والإنابة، ولكنهم ما رجعوا ولا أنابوا ...، والحقيقة هي أن الذين لا يؤمنون بالدليل والبرهان، فإنهم لا يؤمنون بالتحذير والبلاء كذلك، اللهم إلا أن يحاصرهم نهائياً عذاب الآخرة الذي لا يُرد!!

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ

فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

هُوَ مَهِينٌ : ضعيف حقير .

يُبِينُ : يفصح الكلام للثغة في لسانه .

مُقْتَرِنِينَ : مقرونين به يصدقونه .

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ : وجدهم خفاف العقول .

آسَفُونَا : أغضبونا أشد الغضب بأعمالهم .

سَلَفاً : قدوة للكفار في استحقاق العقاب .

وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ : عظة وعبرة للكفار بعدهم .

إن منكري الحق إنما قابلوا الحق بالإنكار دوماً ناظرين إلى ضآلة شأن الداعي إليه ومكانته العادية ، ففي مصر كان فرعون حاكم البلاد الأوحد ، وكانت الأنهار المتفرعة من النيل تجري بحسب أمره ومشيئته ، هذا إلى جانب كون كل أسباب العزة والسلطان والأبّهة متوفرةً لديه ، بينما كان موسى يبدو إنساناً عادياً لا يملك جاهاً ولا أبهة سلطانٍ، وبالإشارة إلى هذا الفارق المظهري ذاته استغفل فرعون قومه وأغواهم ، فما لبثوا أن مالؤوه على إنكار موسى وتكذيبه .

ويظهر أن قوم فرعون إنما وقفوا إلى جانبه وأطاعوه بناءً على مثل هذه الأدلة (السطحية) ، ولكن الحقيقة هي أن السبب في ذلك كان يرجع إلى ضعف القوم أنفسهم، وليس إلى قوة أدلة فرعون . فاتباع موسى في ذلك الوقت كان معناه تحطيم خريطة الحياة الجاهزة ، وقليل جداً هم الذين يتجرؤون على مناصرة الحق بتحطيم خريطة حياتهم الجاهزة...، ومن ثم فحين تعرض فرعون لعذاب الله جزاء إنكار الحق، لم يلبث قومه بدورهم أن صاروا معه ضحايا العذاب الإلهي.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

مِنْهُ يَصِدُّونَ : من أجله يضجون ويصيحون فرحًا وجذلاً .

قَوْمٌ خَصِمُونَ : لد شداد الخصومة بالباطل .

مَثَلاً : آية وعبرة عجيبة كالمثل السائر .

لَجَعَلْنَا مِنكُم : بدلكم . أو لولدنا منكم .

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ :يعلم قربها بنزوله ﷺ .

فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا :فلا تشكن في قيامها .

بإمكان المرء في عالمنا الراهن أن يلوي مقصود أي كلامٍ عن استقامته ، ويستخرج منه عكس مراده الحقيقي . ومن أمثلة ذلك أن رسول الله - ﷺ- قال ذات يومٍ ما معناه: "ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير" ، فاعترض المعارضون عليه قائلين : إن هؤلاء النصارى يعبدون المسيح ، إذن ، أفليس في المسيح هو الآخر خير" ؟!

ومن الواضح أن هذا لم يكن إلا اعتراضاً فارغاً وشبهةً مفتعلةً ؛ فإن قول الرسول ﷺ كان موجهاً أساساً إلى العابد دون المعبود ، وحتى لو اعتبرناه موجهاً إلى المعبود ، فإنما كان المراد به صراحةً هو الذي يرضى بتأليه نفسه ، ولكن المرء إذا لم يأخذ حديثاً ما بمأخذه المستقيم ، فإنه يستطيع أن يعكس مفهومه ، مهما كان الحديث في حد ذاته

صحيحاً مستقيم المعنى .

لقد كانت شخصية عيسى عليه السلام من بعض النواحي مشابهةً للملائكة ، ومن هنا ألهه الكثيرون من أتباعه وعبدوه ، غير أن خلق عيسى الملكوتي كان مثالاً على قدرة الله وليس مثالاً على قدرة عيسى الذاتية. والحقيقة أن عملية خلقٍ كهذه ليست بصعبةٍ على الله إطلاقاً ، إذْ لو شاء تعالى لجعل من سكان الأرض كافة ملائكةً ، ولكن هؤلاء الملائكة سيظلون ؛ على أية حالٍ ملائكةً ، ولن يعودوا أبداً آلهةً يُعبدون!!

وقد أيد الله عيسى بمعجزات وخوارق عديدة ، منها أنه كان يُحيي الموتى ، وكان ينفخ في الطين هيئة طير ، فتدب فيه الروح والحياة والحركة ... إلخ ، وهذا كله كان في الأصل آيةً إلهيةً أظهرت لتدل على إمكان الحياة بعد الموت ، ولكن الناس بدل أن يستلهموا منها الدرس الحقيقي المطلوب ، راحوا يعبدون المسيح عليه السلام باعتباره فوق البشر.. وهكذا تتجلى الآيات الإلهية دوْماً في صور شتى ، وإنها لتفيدنا عبراً هامة جداً فيما لو اعتبرناها آية ، أما لو تم اعتبارها شيئاً آخر غير الآية ، فإنها تصبح سببا لوقوع البشر في الضلالة والانحراف . والشيطان يحاول دائماً أن يحول بين المرء وبين اعتباره واتعاظه بالآيات الإلهية .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

فَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

المراد بـ "الحكمة" هنا روح الدين .. وأما "الصراط المستقيم" فالمقصود منه الشيء نفسه الذي أطلق عليه ضمن هذه الآيات "تقوى الله، وعبادته وطاعة رسوله" . وهذا هو لُبّ الدين وجوهره، وقد انتهى الأمر باليهود في القرون المتأخرة إلى أنهم فقدوا روح الدين، واستخرجوا عن طريق التفريع والتنقير في أصول الدين مسائل جديدة لا تحصى، ومازالت هذه المسائل المستحدثة موجودة في كتب اليهود حتى يوم الناس هذا . وبسبب هذه الإضافات المزعومة ذاتها، انقسم القوم إلى طوائف شتى، حيث أكد البعض على مسألة خلافيةٍ معينةٍ، بينما ركز بعضهم على مسألة خلافية أخرى، وهكذا تحول الدين الواحد عندهم إلى أديان متعددة. ولقد جاء سيدنا المسيح عليه السلام لكي يلفت انتباه اليهود إلى أن الأهمية في الدين إنما هي للروح وحده دون الشكليات والمظاهر، وأن الشيء الذي يتوقف عليه خلاص المرء يتمثل في اتباع الدين المنزل من عند الله، وليس في اتباع الدين الذي وضعتموه من تلقاء أنفسكم !!

وقد قرر سيدنا المسيح أن جوهر الدين هو أن تخافوا الله ، وألا تعبدوا إلا إياه، ولا تشركوا بعبادته أحداً ، وأن تتخذوا من الرسول قدوةً في شئون الحياة كلها. أما ما استحدثتم من مسائل لا تحصى بتنطّعكم وتفريعاتكم ، فإنما هي إضافاتكم أنتم ، لا تمت إلى صميم الدين الإلهي بصلةٍ ، وإنما عليكم أن تستمسكوا بروح الدين الأصيل وتتخلوا عن هذه الإضافات. وأحاديث سيدنا المسيح عليه السلام هذه مازالت موجودةً في الأناجيل حتى اليوم!.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٦٦ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا

تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

هَلْ يَنظُرُونَ : هل ينتظرون .

بَغْتَةً : فجأة .

الأَخِلاَّءُ : الأحباء في غير ذات الله .

تُحْبَرُونَ : تسرون سروراً ظاهر الأثر .

وَأَكْوَابٍ : أقداح لا عري لها ولا خراطيم .

حين يتبنى المرء في الدنيا موقفاً معادياً للحق ، فإنه يجد من حوله أصدقاء كثيرين يوالونه ويشدون من أزره،واعتماداً على أولئك الأصدقاء لا يفتأ المرء يزداد تعنتاً وعناداً وطغياناً،ولكن كل هؤلاء الأصدقاء لن يلبثوا أن يتخلوا عنه ويخذلوه يوم القيامة،وستبقى يومئذٍ صداقة واحدة فقط،وهي التي قامت على أساسٍ من خوف الله وتقواه .

إن حياة العبودية للحق في الدنيا محفوفة بألوان شتى من الأخطار والمحاذير ، بيد أن جزاءها في الآخرة رائع بحيث سيفوز المرء هناك بالنجاة والأمان المطلق الدائم من كل أنواع الحزن والخوف والألم . والذين يثقون بهذا الوعد الإلهي أتم الثقة ، هم وحدهم يستطيعون الثبات على جادة الحق في العالم الراهن، وسيعطيهم الله في الآخرة كل ما كانوا قد فقدوه في الحياة الدنيا لأجل الله – سبحانه وتعالى!

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ

قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ : لا يخفف عنهم .

مُبْلِسُونَ : ساكنون أو حزينون من شدة اليأس .

لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ : ليمتنا حتى نخلص من هذا العذاب .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً : بل أحكموا كيداً له ﷻ .

وَنَجْوَاهُم : تناجيهم فيما بينهم .

الأمل يخفف الإحساس بالألم دائماً ، فإذا أصيب المرء بألمٍ ما ، وهو يأمل أن هذا الألم سينتهي يوماً ، تولدت في داخله مقدرة التحمل لذلك ، غير أن آلام جهنم هي آلام لن يكون للإنسان بارقة أملٍ في الخروج منها ، أما استغاثة أهل جهنم بالملائكة ، فإنما يكون ذلك بمثابة صرخةٍ اضطراريةٍ تعبر عن غاية عجزهم وضعفهم ، وإلا فالمستغيثون بأنفسهم سيكونون على علمٍ بأن الله قد قضى بين العباد قضاء مبرماً ، وأنه لم يعد الآن إلى تغييره أو تحويله عنهم من سبيل !!

ودخول أحد الناس إلى جهنم إنما يكون جزاءً وفاقاً لتقصيره هو، لقد زوّد الله الإنسان بقوة فهمٍ وتمييزٍ على أرفع مستوىً ، وفتح أمامه سبل الحق والرشاد ، ولكن الإنسان أعرض عن الحق رغم علمه ومعرفته به ، ووصل به التمرد والعناد إلى حد أن تصدى لإنهاء حياة الداعي إلى الحق وتدميره ، فما عساه أن يكون مصيره ، سوى أن يُلقى به في عذابٍ دائمٍ لا يزول !؟!

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يَخُوضُوا : يدخلوا مداخل الباطل .

﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ هذه الجملة تدل على أن العقيدة التي يجهر بها الرسول ، يعتبرها هي عين الحقيقة ، وأنه ليس واقفاً على أرضية التقليد القومي، والعصبية الطائفية ، وإنما هو مرتكز على أرضية الدليل والبرهان ، ولقد جاء يدعو إلى هذه العقيدة لأن كل الحقائق تؤيدها وتشهد بصدقها . ومن هذا يتضح أن أمر الداعي يكون أمر الشعور بالحقيقة ، وليس أمر التقليد القومي . ومصنع الله الإبداعي ، هذا الذي يمتد أمامنا في صورة الأرض والسماء ، يدلنا على أن إلهه ليس إلا إلهاً واحداً ، إن الكون بنظامه المحكم وتناسقه البديع ينفي أن يكون إلهه أكثر من إلهٍ واحدٍ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ : هو معبود في السماء.

وَتَبَارَكَ الَّذِي : تعالى أو تكاثر خيره وإحسانه .

إن الأرض والسماء تؤديان وظائفهما في غاية الانسجام والتوافق ، حيث يوجد في كلا العالمين - العلوي والسفلي - حكمة واحدة وعلم واحدة على أتم درجةٍ وأكملها . وهذا دليل ناطق بأن ليس هناك إلا إله واحد هو الذي يدبر وحده شئون كلٍ من

الأرض والسماء ، ويقوم وحده بإدارة نظامها العجيب المدهش . والكون يعرفنا بقدرة الله الهائلة ورحمته الواسعة في آنٍ معاً ، وهذا يقتضي أن يكون المرء خائفاً من الله أشد الخوف ، وراجياً فضله تعالى أقوى الرجاء ، والذين يقيمون الدليل على هذا الشعور وهذا السلوك هم وحدهم أولئك الذين إذا لقوا ربهم أغدق عليهم شآبيب رحمته إغداقاً !.

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ : فكيف يصرفون عن عبادته تعالى .

وَقِيلِهِ : وعنده علم قول الرسول ﷺ .

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ : فأعرض عنهم .

سَلامٌ : أمري تسلم ومتاركه لكم .

إن الشفاعة التي يتقدم بها الأنبياء ودعاة الحق يوم القيامة ليست في الحقيقة شفاعةً ، وإنما هي شهادة ، وهي تعني أن يشهد المرء بشيء هو يعلمه شخصياً ، فحين تُعرض قضايا الناس في محكمة الآخرة ، فإن الله سبحانه رغم إحاطة علمه بكل شيءٍ ، سيقيم من بين أهل المحشر - لمزيد التوكيد والتوثيق - عباده الذين عاصروا الأمم والشعوب، واضطلعوا بإبلاغ رسالة الحق إليها ، فآمن بعضهم وكفر بعضهم ، ووقف قوم إلى جانب الحق ، بينما تصدى آخرون لمحاربة الحق . هذه التجربة التي عاشها أولئك الصالحون الأبرار سيحكونها أمام الله ، وسيكون ذلك تماماً كما يدلي أحد الشهود ببيانٍ صادقٍ أمام المحكمة في ضوء مشاهدته الذاتية .

هذا ، ولن يكون في مقدورٍ أحد يوم القيامة أن يقوم شفيعاً لأحدٍ من المجرمين ، بحيث يتوخى بشفاعته تغيير ذلك الحكم الإلهي الذي كان من المقرر صدوره في حقه بموجب العدل والواقع .. كلا .. فالله سبحانه أرفع بكثيرٍ من أن يحاول شخص في حضرته محاولة كهذه ، وعمل الدعوة إلى الحق عمل كله نصيحة ، حتى في المرحلة النهائية ، إذْ يكون الداعي قد انكشف عليه بوضوحٍ أن الناس لن يؤمنوا بدعوته على أية حالٍ ، فإنه لا يلبث - مع ذلك - أن يتوجه إلى ربه يدعو للناس ، ولا يزال يتمنى لهم الخير صابراً على أذاهم وإساءتهم!!